الياس خوري

محجوب عمر: الفدائي و"خدّام اللطافة"

رؤوف نظمي ميخائيل، هذا هو اسمه الأصلي الذي أضيف إليه لقب الدكتور بعد تخرجه من كلية الطب، عقب خروجه من السجن. لكننا عرفناه باسم الدكتور محجوب، وعشنا طويلاً في ظل صداقته وبالقرب من كلماته.

عندما التقيت به للمرة الأولى في مركز التخطيط الفلسطيني، وكان ذلك عشية اندلاع الحرب اللبنانية (١٩٧٥)، عرفت أنني كنت أعرفه. رفاقي الفدائيون الذين عاشوا تجربة أيلول الأسود (١٩٧٠) حدثوني كثيراً عن ذلك الطبيب المصري الذي يقاتل حين يأتي القتال، ويطبب حين يحتاج الأمر إلى طبيب، ويقود في المهمات الصعبة، ويكتب الشعر باللهجة المصرية، ويغني لعبد الوهاب، ويخدم الجميع.

كان نصه عن مستشفى الأشرفية في عمّان قد سبقه إليّ، وكانت علاقاته السياسية والثقافية مع مجموعة من أصدقائي اللبنانيين قد رسمته في ذهني فدائياً ومناضلاً. وجاءت مساهماته الثقافية والأدبية المتنوعة لتضفي عليه صفة الدهشة الطفولية التي تجد الجديد وتصنعه.

عندما التقيت به لم أصدّق عيني، تواضع وزهد في الدنيا. كان يشبه الفدائيين مثلما كان الفدائيون، راهب مصري يأتي من عمق

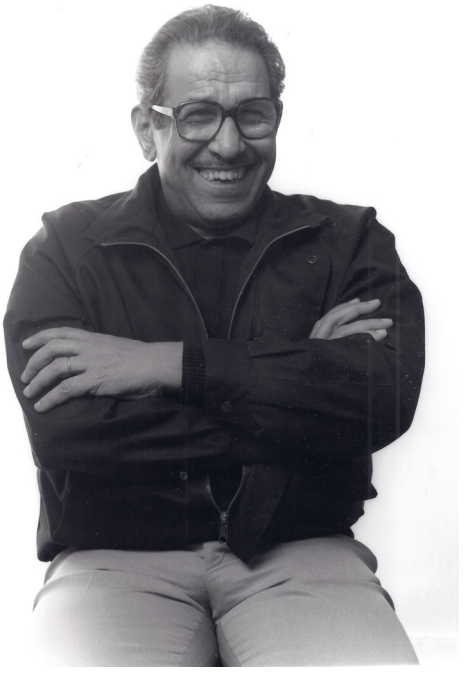

صعيد مصر ليعلّمنا التقشف.

"أنت محجوب مستشفى الأشرفية في عمّان"؟ سألته.

"محسوبك خدّام اللطافة"، أجابني.

صار "خدّام اللطافة"، هو اسمه عندي. فما دام محجوب ليس اسمه، واسمي ليس اسمي، فلماذا لا نضيف استعارة إلى استعارة؟

كان الدكتور محجوب هو خدّام اللطافة.

كان غريباً في لبنان من دون آلام الغربة، كانت كل بلاد العرب بلاده، من مصر إلى فلسطين إلى الجزائر إلى الأردن إلى لبنان وصولاً إلى مصر من جديد.

كان ذلك الزمن هو زمن الفدائيين، الفدائي يحتجب ويتواضع ويخدم الشعب. لم يكن الفدائيون يملكون سوى دمهم وجباههم المرفوعة ورؤوسهم المغطاة بالكوفية الفلسطينية.

الطبيب المصري الشيوعي الآتي من السجون اختار أن يكون فدائياً، أي أن يكون محجوباً. وكان اسمه مطابقاً للصورة التي أرادها لنفسه. يحضر المناضل ويحتجب اسمه، هكذا ولدت فلسطين القضية والثورة قبل أن يتزاحم الوصوليون إلى اعتلاء عرش صنعه الموت والشهادة والتواضع.

ماذا أتى بالشيوعي المصري إلى صفوف حركة "فتح"، كي يصبح أحد أبنائها وآبائها؟ وما سر تلك العلاقة التي ربطته بالقائد الشهيد خليل الوزير؟

في مصر كان محجوب من دعاة إقامة جبهة وطنية تضم الشيوعيين والإسلاميين لمقاومة الإنجليز، ثم لإيقاف زحف العسكر على السلطة في سنة ١٩٥٤. المحاولة فشلت في مصر، والحزب الشيوعي تحطم من خارجه بفعل القمع، ومن داخله بسبب السياسة السوفياتية التي كانت تبحث عن موطىء قدم، بصرف النظر عن المبادىء.

لكن محجوب الماركسي لم يتحطم، حمل حلمه وأتى به إلى فلسطين، فبعد الهزيمة الحزيرانية المخزية، صار التناقض الرئيسي هو مع الاحتلال، فذهب الطبيب المصري إلى أرض المواجهة. جاء طبيباً إلى الجزائر، والتحق بالفدائيين طبيباً في جنوب الأردن، قبل أن يصير مفوضاً سياسياً وقائداً ومخططاً، ويأتي إلى لبنان، ويمضي بعد اجتياح ١٩٨٢ إلى قاهرته التي اشتاق إليها، لكنه جاءها هذه المرة بصفته فلسطينياً.

جلب معه إلى النضال الفلسطيني أجمل ما في تراثه النضالي المصري: التضحية والتفاني والاحتجاب كي لا ترتفع سوى لغة الفقراء ولا تظهر سوى وجوه اللاجئين.

لا أذكر لماذا بقيت بعدما انفض الاجتماع

الذي شاركت فيه في مركز التخطيط حيث التقيت به للمرة الأولى. ربما دفعني فضولي إلى التعرف أكثر إلى صاحب "الحوار في ظل البنادق". دعاني الرجل إلى الغداء، وبدلاً من أن يأخذني إلى مطعم "الشموع"، حيث كان يأكل العديد من مثقفي التشرد الذين يعيشون على رصيف الثورة الفلسطينية، قادني إلى المطبخ، حيث أعد وليمتنا المؤلفة من أربع بيضات مسلوقة. وعندما رأى الخيبة ترتسم على وجهي بعدما قام بتقشير البيض، انفجر ضاحكاً، وطمأنني إلى أن الوجبة ستكون مختلفة، وضع المقلاة على النار وقام بقلي البيض المسلوق كاملا. يومها أكلت إحدى أفضل الوجبات التي صنعها الفدائيون، كان الرجل يروي ويضحك، ينتقل من التحليل السياسي إلى رواية الشعر، ومن الذكريات إلى الأسئلة الشخصية.

صفة راهب الثورة وفقيرها كانت سمته الأساسية، لا أدري لماذا لم يلتفت أحد من قبل إلى أن الرجل كان مكبلاً بما يشبه نذور الفقر التي يأخذها الرهبان قبل سيامتهم. لا أدري في أي معبد قدّم الرجل نذوره، فهذا المسيحي القبطي كان مسلماً أيضاً.

اجتمعت في شخصه هويات متعددة، كان مصرياً وفلسطينياً وأكاد أقول لبنانياً أيضاً، وكان ماركسياً ومسيحياً ومسلماً، كان طبيباً وشاعراً وكتب القصة والمسرحية. كان أول مَن انفتح على الإسلاميين من دون أن تصيبه اللوثة التي أصابت بعض أقرانه بعد الثورة الإيرانية فأسلموا، وصاروا في لا مكان. عرف الرجل أن يحافظ على الطبقات المتعددة في هويته، لأنه تعلم منذ أن بدأ نضاله في الجامعة المصرية أن يتماهى مع المضطهدين والفقراء والعمال. كانت هويته هي التماهي، لذا استطاع أن يكون متعدداً، فاحتجب رؤوف خلف محجوب من دون أن يختفي، واحتجب محجوب خلف الفدائي كي يمتلك رؤوف لغة الحلم والتغيير.

في زيارتي الأولى للقاهرة بعد الخروج الفلسطيني الكبير من بيروت، ذهبت للقائه. وكان محجوب كريماً في كل شيء. أخذني إلى أمكنته الأثيرة، من وكالة البلح إلى منزل صديقه الرسام الذي كان يطلق عليه اسم الملك، وطلب من زوجته الصديقة منى أن تأخذني إلى الفيوم. ومشينا في طرقات قاهرة المعز، وعرفت معه أن النيل ينبع من أعماق المصريين، وأن مصر هي أمنا لأنها "أم الدنيا".

اعتقدت وأنا أمشي مع الرجل في شوارع مدينته، أن الرجل عاد أخيراً إلى بلده كي ينفض عن عينيه رمال الغربة. لكنني كنت مخطئاً. كان محجوب قادراً على أن يطيح بكل توقعاتنا الجاهزة عنه. في بيروت كان محجوب مصرياً يقاتل في صفوف الفسطينيين، وفي القاهرة صار الرجل فلسطينياً يناضل مع المصريين. لا أدري لماذا اختار قدر أن يكون غريباً أينما رحل وأنّى توجه. لا لم تكن غربته تحمل مرارة الغرباء في حنينهم إلى أوطانهم، كانت غربة مختلفة تتضمن الاكتشاف والالتزام وروح الدعابة. عاد إلى مصر لا ليستأنف نضاله المصري الذي تقطّع عند التحاقه بصفوف حركة "فتح"، وإنما ليتابع التزامه الفلسطيني في مصر. هكذا كان مصرياً في فلسطين وفلسطينياً في مصر، وهكذا قرر أن يموت.

التقيت به خلال مرضه الطويل، فرأيت الشاب يحتجب خلف الكهل، والكهل يصنع من الشاب مرآته. لم أعرف رجلاً يحمل هذه الثقة الكبرى بالناس مثل هذا المحجوب الذي كان يبحث في العتمة عن نقطة ضوء يمسك بها، وفي الحزن عن فرح يختبىء في مكان خفي، وفي الموت عن الحياة.

هذا هو سر علاقته بخليل الوزير. هكذا كان أبو جهاد يصنع الحلم على إيقاع اليأس، ويبني عناصر الانتفاضة الأولى حجراً حجراً.

وعندما التحمت الأحجار وانتفض الشعب، رأيت على وجه محجوب ذلك الهدوء الذي يصنعه الإيمان. بينما كنا نحن نعيش عصف المفاجأة بقدرة الشعب الفلسطيني على تقديم رده على هزيمة بيروت في سنة ١٩٨٢، كان محجوب يتحدث بهدوء وثقة عن الأفق الذي يفتحه الشعب دائماً.

لم يمت محجوب في ١٧ آذار / مارس ٢٠١٢ منسياً أو منزوياً، فما بدا انزواء كان جزءاً من طبيعة الرجل التي تجمع النبل إلى التواضع. كان رؤوف نظمي ميخائيل، أو محجوب عمر، يعرف أن ما قام به هو ورفاقه الشهداء من جواد إلى كل الذين سقطوا مضرجين بحلمهم، سيبقى في ذاكرة المستقبل، نموذجاً للثوري الذي يضحي بكل شيء بحثاً عن شمس العدالة، وأنه صار اليوم في عين الشمس التي بدأت تخترق حجب الظلام في أرض العرب كلها. ■

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

أوراق عائلية

دراسات في التاريخ الاجتماعي المعاصر لفلسطين

(طبعة ثانية منقحة)

مراجعة

صالح عبد الجواد

٢٦٦ صفحة ١٥ دولاراً

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

مذكرات محام فلسطيني

حنا ديب نقارة

محامي الأرض والشعب

تحرير

عطا الله سعيد قبطي

٣٨٥ صفحة ١٢ دولاراً